غادة شبير في حفل الأونيسكو: وفاءً للموّال والموشح

سحر طه

غنت غادة شبير قصص حبها ووفائها لهويتها الموسيقية العربية، تلك المخضبة بحناء الميلوديات الصعبة الأصيلة والمتداخلة مثل نسيج حريري، إذ تردد صوتها المتقن والملائكي في أرجاء قاعة قصر الأونيسكو أول من أمس، احتفاءً بنيلها جائزة الـ«بي بي سي» للموسيقى العالمية عن الشرق الأوسط.

صوت يصطفي الألحان الآسرة فيمنحها أبعاداً أخرى وجماليات، حين ينحت منها شلالات أنغام تنزل على الأذن برقة ونعومة فتزيدها شغفاً بالألحان القديمة، المسموعة كثيراً أو قليلاً بأصوات أخرى.

ساعتان كان فيهما صوت غادة يدق ناقوس التفاؤل إلى العلن، فرغم كل الفجور الفني المحيق بنا، تطالعنا نغمة أمل وصوت حقيقي، ورغم التصحر الموسيقي الذي يسابق تصحر أراضينا، إلا أن واحة خضراء تتبدى لنا هنا أو هناك، فتنقلت شبير في واحتها الزاهية بأشكال غنائية وألوان تطريبية، من موشح إلى قصيدة إلى طقطوقة وموال، ومن مصر ولبنان. وبخفة العارف وطرافة الذكي كانت تلقي معلومة مقتضبة حول كل عمل بلا استعراض أو إلقاء محاضرة.

الواضح إن غادة شبير وبعد سنوات على البداية وممارستها التعليم وقيادة الفرقة الغنائية في جامعة الكسليك واعتلاء المسارح المحلية والعربية والدولية، كل ذلك منحها التمرس والخبرة اللذين أضفيا على موهبتها وخامتها اللافتة إتقاناً ودقة، فاجتمعت لدى شبير ثلاثة عناصر هامة ندر أن اجتمعت كلها في أخريات، وبخاص اليوم وهي: الخامة الأصيلة والعلم والخبرة.

وبالأمس كانت العناصر الثلاثة تسير متوازية معاً في اداء غادة شبير واتقانها الألحان وبخاصة حين نعلم إنها اختارت موشحات بعضها يعتبر من أصعب الألحان في هذا النمط أو القالب الغنائي مثل موشحات للشيخ سيد درويش: «منيتي عز اصطباري» وموشح «حيّر الأفكار بدري» وطقطوقة «أهو دا اللي صار». وقبله افتتحت أمسيتها بالأخوين رحباني و«يا حبيبي كلما هب الهوى» وأغنية «وقّف يا أسمر».

تتحايل - من خبرة - على ما يتضمن بعض صعوبة أو قد يقع بديهياً خارج نطاق مساحة الصوت سواء في قرارات أم في جوابات النغمة فتبدو الجملة سهلة، سلسة، والقرار همس والجواب استرسال واستمرار طبيعي وامتداد للنوتة، حتى تبدو نوتات مثل موشح «هل على الأستار هتك» اختباراً فعلياً لصوت مؤديها مثل قطع «الميثودات» التي تكتب لتمرين الأصابع لعازف بيانو مثلاً. فيقوم الموشح مكان «الميثود» أو ما يسمى «تمرين» ليكون بمثابة تمرين للصوت في أقصى صعوباته، وكما في موشح «هجرني» الذي أغرمت به، بعد أن استمعت إليه من تسجيلات مؤتمر القاهرة الدولي ١٩٣٢، وكتبت له النوتة لتؤديه ضمن أمسياتها وضمنته أسطوانتها «الموشحات» التي ربحت الجائزة الأولى كما أسلفنا.

ثم اختارت غادة شبير أن تنتقل إلى أجواء الراحل محمد عبد الوهاب فأدت قصيدة «مضناك جفاه مرقده» للشاعر أحمد شوقي. وكنا نتمنى لو مدت حرف الألف في كلمة «مضناك» لجمالية المد على حروف العلة وكما هي الأصول في اللغة وفي اللحن الأساسي لعبد الوهاب، إذ كانت تخطف الحرف فتضيع جماليته. إلا أن بعض المختارات كانت تميل أحياناً إلى الطقاطيق والأغنيات الأكثر شعبية وهذا مقصود لتخفيف ضغط الموشحات وثقل ألحانها على من لم يعتد هذا النمط، فأدت «على بلد المحبوب» للسنباطي وأم كلثوم، و«أهوى قمراً» مع قصيدة وموال على مقام الصبا، وأغنية «حوّل يا غنام» للسيدة نجاح سلام، و«فرّق ما بينا» لأسمهان، والختام مع «أهو دا اللي صار».

وأخيراً يتمتع العمل ككل بالبساطة في التوزيع الموسيقي وعدم التلاعب بالألحان الأصلية، إلا أن اللافت هو إتقان الأداء إلى حد بعيد تمثل بأنامل أساتذة لهم باع طويل في المعهد الموسيقي وكانت وقفات مع التقاسيم في موشح « قم بنا»: من شربل روحانا في عزفه على العود وقيادته للفرقة، سمير سبليني على الناي، ماريا مخول على القانون، عبود السعدي على الباص غيتار، علي الخطيب على الدف، ميشال خليفة وايلي خوري على البزق.

● غادة شبير (جورج فرح)